شاعر العفاف والكتمان

تمهيد:

رأينا ما صنع جميل وكثير في الحياة الغرامية، وكان في العصر الأموي أظهر من أعلن «عقيدة التوحيد في الحب» بغض النظر عن مجنون ليلى قيس بن الملوح، فقد حدثنا صاحب الأغاني أن ناسا قالوا إنه شخصية خرافية، وبهذا القول تأثر الدكتور طه حسين، كما يشهد كتابه «حديث الأربعاء»

وماذا يقع إن صح القول بأن شخصية «مجنون ليلى» شخصية خرافية؟

يقع ما هو أغرب، وهو أن العصر الأموي تعطش إلى الصدق في وحدانية الحب، فاخترع أحد رجاله شخصية غرامية تحدث الناس بما يشتهون من أحاديث الوجدان. وكان ذلك لأن العصر الأموي في رأيي من أقوى العصور العربية، بعد عصر النبوة، ففيه أقيمت دعائم الحضارة الإسلامية، بفضل الرجل الذي ظلمه المؤرخون المغرضون وهو معاوية بن أبي سفيان.

والعافية التي امتاز بها ذلك العصر هي السر فيما ظهر فيه من تنوع المواهب الأدبية، فنبغ الشعراء السياسيون، والشعراء الوجدانيون، والشعراء الهجاءون، والخطباء الصوالون.

وفي ذلك العصر ظهرت بواكير التصوف الإسلامي، وبدرت بوادر الإلحاد في الدين.

ومن هذه النوازع يتأكد ما أشرنا إليه، وهو العافية التي تحولت إلى شراسة تعصف بالعقول والقلوب، ويتفرق بها الناس إلى شيع وأحزاب.

ومن هذه النوازع نفسها جاز أن يخلوا رجال إلى قلوبهم ليؤمنوا أو يكفروا، وليجدوا أو يلعبوا، فقد أغنتهم الدولة بجيوشها القوية عن حمل أعباء الحروب.

هذا هو السر في أن كان في العصر الأموي شاعر لاعب مثل عمر بن أبي ربيعة، وشاعر يتصوف في الحب مثل جميل، وكانا من أكابر الفرسان، ولو احتاجت إليهما الدولة لكانا في طليعة رجال الجهاد.

ثم كانت القلقلة التي نقلت الخلافة من أيدي بني أمية إلى أيدي بني العباس، والتي قضت بأن ينتقل مقر الدولة من الشام إلى العراق.

قعقعت هذه القلقلة عددا من السنين، ثم عاد الناس إلى سيرتهم الهادئة بعض الهدوء، على نحو ما كانوا في العصر الأموي، فظهر شاعر يتصوف في الحب كما كان يتصوف جميل، وهو العباس بن الأحنف، إمام العشاق الشرفاء في العصر العباسي، ورافع راية الوجدان السليم في العصر الذي بلبله إمام الشعراء الخلعاء، وهو أبو نواس.

لم يكن للحضارة الإسلامية في عهد الرشيد غنى عن شاعر عفيف يقاوم طغيان ذلك الشاعر الفتان، فما عرفت الحضارة الإسلامية أفتن من أبي نواس، ولعله أخطر شاعر في التاريخ الإسلامي.

وهنا تظهر قوة شاعرنا العباس، عليه سلام الحب، فالعفاف قوة سلبية، والتغني به لا يوائم الطبيعة الحيوانية، إلا إن كان المغني في قوة روحية تقتلع جذور الشهوات، وترفع النفوس إلى الطهر الذي دعا إليه الأنبياء.

يجب أن نعترف بالحق، فنسجل أن عهد الرشيد كان فيه رجال يؤذيهم أن يكون الحب لعب أطفال، وهؤلاء هم رواة شاعرنا العباس، وهم الذين ظاهروه على أبي نواس.

أقول هذا لأني أومن بأن هوى المغني من هوى السامعين، والتجاوب شرط أساسي في الأعمال الأدبية والفنية، فما يظهر فن إلا وفقا لهوى ظاهر أو مكنون، ولا ينبغ داع إلى هدى أو ضلال بغير وحي يوحى إليه من هذا الجمهور أو ذاك.

والذي جاز في العصر الأموي هو الذي جاز في العصر العباسي، فنحن هنا كما كانا هناك، نواجه شيعا وأحزابا تقتتل في ميادين الآراء والأهواء، والحقائق والأباطيل.

وشاعرنا العباس حارب وانتصر، وحارب خصومه وانتصروا، لأن الميدان اتسع لطوائف من المحاربين، وهو الميدان الذي اشتجرت فيه بواعث الإثم ودواعي العفاف.

كان لأبي نواس ألف هوى، وكان للعباس هوى واحد، فما الذي وقع؟

تشاجنت أهواء أبي نواس، وتوحد هـوى العبـاس، لحكمـة أرادهـا الله في تخليد مواهب شاعر العفاف والكتمان.

الهوى المعقد يوقظ القريحة، ويبعث غافيـات الأمـاني، ولا كـذلك الهـوى الموحد، فقد ينتهي إلى الملال، إلا أن يكون الشاعر من دعاة التوحيـد في عبـادة الجمال.

قضى شاعرنا العباس عمره كله في التغني بمعشوقة واحدة هي فـوز، فهـو بذلك من الموحدين في الحب، وسنرى ما أجدى عليه هذا التوحيد.

أجمع النقاد على أنه أعظم المتفـوقين في الفـن الواحـد، وفـاتهم أن يـذكروا سبب هذا التفوق، وهو أنه من أعظم رجال القلوب، وأساس القوة الوجدانية أن يكون للرجل قلب.

أما بعد فمن هذا الشاعر؟ وما الذي عنده من البدائع؟

شاعر بغداد:

الشاعر العفيف هو شاعر بغداد الأول، والشاعر الفاجر هو شـاعر بغـداد الأول، والشاعر الثائر هو شاعر بغداد الأول.

ولكن كيف؟

توضيح ذلك أن جو بغداد عنيف إلى أبعد حدود العنف، وهو يسير الطبائع كما يريد، بلا نظام ولا ميزان، بحيث يجوز القول بأنه يخبط خبط عشواء!

يعف الشاعر في بغداد عفاف قليل المثال فتقول: هذا شاعر بغداد، ويفجر الشاعر في بغداد فجورا يجاوز الحدود فتقول: هذا شاعر بغداد، ويثور الشاعر في بغداد ثورة عاتية فتقول: هذا شاعر بغداد.

الشاعر العفيف هو العباس بن الأحنف، والشاعر الفاجر هو أبو نواس، والشاعر الثائر هو الشريف الرضي، فهؤلاء الشعراء الثلاثة يمثلون اختلاف الطبيعة البغدادية أصدق تمثيل، ولهم أنداد يضيق عنهم مجال الحديث.

وأزيد في التوضيح فأقول إذا قرأنا أخبار العباس ظننا أنه الشاعر الأوحد في بغداد، وإذا قرأنا أخبار أبي نواس ظننا أنه كان الشاعر الأوحد في بغداد.وإذا قرأنا أخبار الشريف ظننا أنه كان الشاعر الأوحد في بغداد.

ومرجع هذا إلى العنف القاهر في الاتجاة الذاتي، وهو عنف لا يخلو من الانحراف، ولكنه في أقبح صوره غاية في الجمال.

حلاوة الحديث:

ومن مزايا بغداد أن لبعض أهلها عذوبة في النطق، على نحو ما يتفق لبعض أهل القاهرة وأهل باريس، وعذوبة النطق في بغداد قد تصل إلى حد الفتون، وقد صور العباس هذا المعنى حين قال:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر.

فكلمة «شهوات السمع» كلمة جديدة، وما أذكر أني رأيت لها نظيرا قبل ذلك العهد. وقد وصف العباس بحلاة الحديث، وصفه أحد معاصريه فقال: «كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت، وكان فصيحا جميلا ظريف اللسان، لو شئت أن تقول (كلامه شعر كله) لقلت»[1]

ومعنى هذا أن حديثه كان يجمع بين ميزتين، ميزة الرنين وميزة الخيال.

البلبل المغرد

أجمع من ترجموا للعباس على أن شعره كان أوفى الأشعار حظنا من الغناء، وهذا هو المنتظر من شاعر كانت أحاديثه المنثورة ألوانا من الألحان. وله قصيد محظوظ في الغناء، لكثرة ما فيه من الصنعة واشتراك المغنين في ألحانه، وهو قصيد:

نام من أهدى لي الأرقا مستريحا زاني قلقا

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٥٣

لو يبيت الناس كلهم بسهادي بيض الحدقا
كأن لي قلب أعيش به فاصطلى بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

وهذا من الشعر المرقص، وهو يشهد بأن العباس كان مفطورا على الغناء.

الشاعر الأمير:

الأمير في اللغة العربية هو الحاكم، فأمير المؤمنين هو حاكم المؤمنين، وقد بقي هذا اللفظ بمعناه إلى اليوم في بعض الأقطار العربية، فوزير الداخلية في تونس لقبه أمير الأمراء، لأنه يشرف على أمراء الأقاليم، وهم في مصر المديرون، وفي العراق المتصرفون، فكيف وصف العباس بأنه أمير عند أهل خرسان، ولم يكن من الحاكمين؟

الجواب أن كلمة أمير قد يراد بها الرجل الكامل، وأهل مصر لهذا العهد يقولون: «فلان رجل أمير» وهم يريدون أنه من أماثل الرجال.

وقد وصف العباس بأنه «كان ظاهر النعمة ملوكي المذهب» وبأنه «كان حلوا مقبولا» وبأنه «كان من الشرفاء» وبأنه «لم يكن من المداحين ولا الهجائين»

حدثني الشاعر عبد المحسن الكاظمي قال: لم أر في حياتي رجلا يستحق بأن يوصف بأنه أمير غير محمود سامي البارودي.

وهو يريد أن البارودي كان من أشراف الرجال.

وكذلك كان العباس بن الأحنف، بشهادة من عاصروه، طيب الله ثراه، وخلد بالحب ذكراه!

صاحب الفن الواحد:

العباس وقف أشعاره على فن واحد هو النسيب «ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولم يكن يتصرف في شيء من هذه المعاني»[1]

ونحن لا نقول بأن الوقوف عند الفن الواحد مزية أساسية في الحياة الشعرية، فما نستطيع أن ننكر التفوق على من راقهم أن يتصرفوا في كثير من الفنون، وإنما نسجل طبيعة العباس مع النص على زهده في المديح والهجاء، فقد كان مفهومًا أن للمديح غاية لا تليق بالأشراف، لأنه كان من الوسائل المعاشية، ونحن نعرف خطر هذه الناحية من الواجهة النفسية، إذا تذكرنا أن الجاحظ أشار إلى أن أول من تكسب بالشعر هو النابغة الذبياني، ومعنى هذا أن التكسب بالشعر بدعة في الحياة العربية.

وقد اتصل العباس بالرشيد، فألفه الرشيد، ودعاه إلى صحبته في الخروج إلى خراسان، ثم خرج إلى أرمينيه والعباس معه فأنشده الأبيات الآتية ليستهديه السماح بالرجوع إلى بغداد:

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٥٢

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول، فقد جئنا خراسانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط ... سكان دجلة من سكان جيحانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله ... أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت ... وعذبت بصنوف الهجر ألوانا

فقال له الرشيد: قد اشتقت يا عباس!

ثم أذن له خاصة بالرجوع.

وهذه الحادثة تشهد بأن صاحب الفن الواحد، هو صاحب الهوى الواحد، فلم يكن العباس ممن يستهويهم التنقل من بلد إلى بلاد في صحبة الخلفاء، وكانت تلك الصحبة من أظهر التشاريف، وإنما كان يهمه أن يكون قريبا من دار هواه، يتغنى كما يشاء.

هل وصف خراسان وقد زارها مع الرشيد، وكان له فيها أجداد؟

هل مدح الرشيد وقد زار خراسان ليخمد بعض الفتن هناك؟

لم يلتفت العباس إلى شيء من ذلك، لأنه كان لا يلتفت إلى أمثال ذلك من الأشياء. لا تكمن الموازنة بينه وبين الطائي والمتنبي في هذه النواحي، فأبو تمام أنس بالأسفار وعني بوصف ما أثارت في صدره من المعاني، وأبو الطيب أنس بالأسفار وسجل في أشعاره ما رآه من مناظر الطبيعية وأخلاق الناس.

أما شاعرنا فكان يكره الأسفار، ولا يتحدث عنها إلا بالإيماء.

تلك طبيعته الفطرية، ونحن لا نكلفه فوق ما يطيق، وإنما المهم أن نعرف قيمة المحصول الأدبي لذلك الاعتكاف الروحي.

من المؤكد أن العباس في غزله وتشبيبه أقوى من الطائي والمتنبي وهو أرق حاشية من كثير وجميل، وهذا كاف في الشهادة له بالتفوق في ميدان الغزل والتشبيب.

نحن لا نكلفه فوق ما يطيق، ولكننا لا نعطيه أكثر مما يستحق، فسيفوقه في الغزل شاعر عفيف هو الشريف الرضي أصدق من تغنى بالحب والجمال.

لم يكن العباس فارسا على نحو ما كان جميل، ولم يكن سياسيا على نجو ما كان الشريف، ولكن طبيعته على سجاحتها ودمائتها كانت غاية في القوة والاكتمال، لأنه استطاع برقته وسهولته أن يكون من أكابر الشعراء. والضعف قوة في بعض الأحايين.

رقة العباس رقة عاتية، على نحو ما تكون رقة الخد الأسيل، فهي تسحر وتقهر، وهي تحفظ مكانها في جبين الخلود.

الفن الواحد جنى على العباس، ولكن كيف؟

أنا أعتقد أن التصرف من فن إلى فن يزيد في المرونة الشعرية، ويروض الشاعر على مراودة عقائل المعاني.

والهوى الواحد جنى على العباس، فما يكون للشاعر هوى واحد إلا أن كان من ضعفاء الفتيان.

وهو قد شرح أدب العاشق مع المعشوق فقال:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

وهذه طريقة لا يرتضيها غير العاشق الضعيف، فالأصل في العشق أنه فضل ورحمة من العاشق على المعشوق، والجدير بالدلال هو العاشق لا المعشوق، فما يدل غير الأقوياء.

تبديد شبهة:

هي الشبهة التي أثارها قلمي بالأسطر الماضية، وهي قد تهدم شخصية العباس، إن مرت بدون تبديد.

قلت إن التصرف من فن إلى فن يزيد في المرونة الشعرية، وهذا حق، ولكن ما الذي يمنع من أن يكون الإكثار من الفن الواحد مثل التصرف في الكثير من الفنون؟ تأدية الفكرة الواحدة بصور مختلفات مرانة تفوق الوصف، والصبر على تصوير الفكرة الواحدة صبرا يستنفد العمر كله ينتهي بالمصور إلى البراعة في التلوين والتزيين.

والشاهد حاضر، وهو براعة العباس في الغزل براعة سارة مسير الأمثال، فقد أتى بالغرائب في العتاب والعفاف والكتمان. وقلت أن الهوى الواحد جنى عليه، وأن الوقوف عند الهوى الواحد من علائم الضعف، ولعلني كنت أريد أن أقول: إن التنقل من هوى إلى هوى يزيد اضرام العواطف وإلهاب الأحاسيس، فيزيد الشاعر قوة إلى قوة، ويرتفع به إلى أبعد قمم الخيال.

وهذا أيضا حق، ولكن ما الذي يمنع من القول بأن الهوى الواحد قد يصير بطغيانه ألوفا من الأهواء؟

معشوقة العباس واحدة وهي فوز، ولم يحدثنا الرواة عن هويتها كما حدثونا عن هوية عزة معشوقة كثير، أو هوية بثينة معشوقة جميل

فهل تكون «فوز» شخصية خيالية؟

هذا مستحيل، فما يقضي شاعر عمره كله في التغزل بمحبوبة من صنع الخيال.

إذًا يجب أن نؤمن بأنها كانت إنسانة قوية الروح، وقوية الإحساس، وقوية الوجدان، إلى أبعد ما نتصور من قوة الروح وقوة الإحساس، وقوة الوجدان، على نحو ما تكون «ليلى المريضة في العراق»

التصوف في الحب:

لقد تصوف ابن الأحنف في الحب، كما تصوف ابن الفارض في الحب، وابن الفارض قال في هواه:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

فإن قيل إن هوى ابن الفارض هو الخالق، وإن هوى ابن الأحنف هو المخلوق، فنحن نجيب بأن جمال المخلوق شعاع من جمال الخالق. وأصغر مخلوق يستنفد منا العمر في التغني بجماله، إن أردنا تصوير ما أسبغ الله عليه من نعم أيسرها نعمة الحياة.

ماذا أريد أن أقول؟

أنا أبدد ما اتهمت به العباس حين قلت إن الهوى الواحد جنى عليه، فأشعار العباس تشهد بأن تلك الوحدانية عادت عليه بأجزل النفع، وصيرته من أقطاب التشبيب.

شاعر العفاف:

المعروف علميا أن الشهوة قوة؛ لأنها اقتحام وانتهاب، وأن العفاف ضعف؛ لأنه زهد وانسحاب. والعاشق المنتهب أقوى شعورا من العاشق المنسحب، فهو بذلك أقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان، فكيف نعد العفاف من مزايا العباس الشاعر أو العاشق؟

أفترع الحقيقة فأقول: إن العفاف لا يكون من علائم الضعف إلا إن كان عفاف العاجزين، وأن يكون أعظم قوة حين يصدر عن الرغبة في التصون، ومن حق الرجل أن يجاهد هواه ليضاف إلى الأشراف، وتلك غاية يتطلع إليها أكابر الفتيان.

ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب في هذين البيتين:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شوهات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

هذه عذوبة الصدق، وهي نهاية في السمو الخلقي، فالفسق الذي يصدر عن النظر غير دنس، وهو ليس بإثم عن ضمان عفة الضمير، وهل نهى الناهون عن النظر الجارح إلا خوفا على الضمير من الافتتان؟

إن العباس فصل في قضية أخلاقية كانت في جميع العهود مما يشغل رجال الأخلاق.

والمهم هو النص على أن عفاف هذا العاشق عفاف أوحت به نية صحيحة، والنيات الصحاح هي الأصل في التماسك الأخلاقي، وبدونها لا يقوم للأخلاق بنيان. ويظهر مما قرأناه في مختلف المصادر أن مؤرخي الأدب طربوا لعفاف العباس، وعدوه ظاهرة أدبية تستحق التسجيل، وهذا يشهد بأن الأخلاق الشريفة كانت مما يستهوي أولئك الرجال.

أنا هنا في مقام المؤرخ للأفكار الأدبية والأخلاقية، ولا يهمني أن يكون ما أقضي به هو الحق فيما تأمر به الشريعة الحيوانية، وإنما يهمني أن أصدق في رواية التاريخ.

وهل يكون العفاف فضيلة اهتدى إليها الإنسان، لأنه أشرف من الحيوان؟

هيهات ثم هيهات، فالعفاف فضيلة يؤمن بها الحيوان أصدق الإيمان، فهناك فصائل راقية لا يعتدى فيها الذكر على الأنثى إذا كانت عشراء، وهناك فصائل لا يتعرض فيها الذكر للأنثى إلا إذا دعته بالإيماء اللطيف. والواقع أن الإنسان هو أفجر السلالات الحيوانية، مع استثناء القرد، لأنه إنسان انحط، وليس حيوان ارتقى.

وتكون النتيجة أن عفاف العباس الصادر عن نية صحيحة رجعة جميلة إلى أدب الإنسان النبيل.

شاعر العتاب:

أكثر الشعراء من أحاديث العتاب، ولكن العباس تفرد في هذا الفن بأفانين، فهو تارة يراه من النعم؛ كأن يقول:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوت الرسائل والكتب

وفي هذه الالتفاته موجات وجدانية تؤكد ما قلناه من أن الهوى الواحد كان له في حياة هذا الشاعر ألوان.

وتارة يوصي محبوبته بنبذ ما تسمع من أخبار شركه بهواها فيقول:

وصالك مظلم فيه التباس وعندك لو أردت له شهاب
وقد جملت من حبيك ما لو تقسم بين أهل الأرض شابوا
أفيقي من عتابك في أناس شهدت الحظ من قلبي وغابوا
يظن الناس بي وبهم وأنتم لكم صفو المودة واللباب
وكنت إذا كتبت إليك أشكو ظلمت وقلت ليس له جواب
فعشت أقوت نفسي بالأماني أقول لكل جامحة إياب
وصرت إذا انتهى مني كتاب إليك لتعطفي نبذ الكتاب
وإن الود ليس يكاد يبقى إذا كثر التجني والعتاب
خفضت لمن يلوذ بكم جناحي وتلقوني كأنكم غضاب

وفي هذه الأبيات تعريف بمحبوبته الغالية، فهي ذاتية لها مكان، ولأهلها مكان، وهي تغار عليه فتهجره حين تسمع أنه أشرك بحبها بعض الإشراك.

ومن كلامه نعرف أن محبوبته كانت على جانب من التثقيف، فهي تقرأ رسائله وتجيب أو لا تجيب، ولم تكن القراءة في هذا العصر تتيسر للمرأة إلا إن كان أهلها من المياسير، وقد أفصح عن لوعته من ضنها بالمراسلة حين قال: ويقنعني ممن أحب كتابه ويمنعنيه؟ إنه لبخيل!

والعباس الذي يفرح بالعتاب، لأنه الوسيلة لتذوق حلاوات الكتب والرسائل، هو نفسه العباس الذي يخاف أن ينقلب العتاب إلى عتب وإيذاء، فيقول:

قاسميني هذا البلاء وإلا فاجعلي لي من التعزي نصيبا
إن بعض العتاب يدعو إلى العتـ ـب ويؤذي به المحب الحبيبا
وإذا ما القلوب لم تضمر العطـ ـف فلن يعطف العتاب القلوبا

وقد بلغ الغاية في التفريق بين صد العتاب وصد الملال، حين قال:

لو كنت عاتبة لسكن لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

وقد ييأس من نفع العتاب فيقول:

سكوتي بلاء لا أطيق احتماله وقلبي ألوف للهوى غير نازع
فأقسم ما تركي عتابك عن قلى ولكن لعلمي أنه غير نافع
وأني إذا لم ألزم الصبر طائعا فلا بد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعة فلا خير في ود يكون بشافع

وقد يحاول تأريث نيران الغيرة في صدر محبوبته لتسمع صوت العتاب فيقول:

يا رب جارية أسلبت عبرتها من رقة ولغيري قلبها قاسي
كم من كواعب ما أبصرن خط يدي إلا تمنين أن يأكلن قرطاسي

والجارية في لغة ذلك العصر هي الصبية. ومن هذين البيتين نعرف من جديد أن التراسل كان في ذلك العصر من الوسائل إلى قلوب الأحباب.

وقد يصرخ العباس من تجني محبوبته فيقول:

كفى حزنا أني وفوز ببلدة مقيمان في غير اجتماع من الشمل
أما والذي ناجى من الطور عبده وأنزل فرقانا وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حواء منك بلية علي أقاسيها وخبل من الخبل

ومن هذه التموجات الوجدانية نرى كيف صح لهذا الشاعر أن يحيا عمره كله في الهيام بمعشوقة واحدة، وقد عرفنا نسبها من الشاعر نفسه بعد أن بالغ في الكتمان: عرفنا أنها بنت حواء!

*****

شاعر الكتمان:

أظهر خصيصة من خصائص هذا العاشق هي الكتمان، وقد طال طوافه حول هذا المعنى حتى صار عنوانًا عليه، ولا تعرف اللغة العربية شاعرا أولع بهذا المعني على نحو ما أولع به هذا العاشق، وقد افتن فيه افتنانا يشهد بأنه كان غاية في الذكاء، كالذي نراه في هذين البيتين:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فجاهل قد رمى بالظن غيركم وصادق ليس يدري أنه صدقا

والشاهد في الشطر الثاني من البيت الثاني، وهو عندي وثبة من وثبات الخيال. ثم يحدثنا أنه كتم حبه عن حبيبه حينا من الزمان فيقول:

هذا كتاب بدمع عيني أملاه قلبي على بناني
إلى حبيب كنيت عنه أجل ذكر اسمه لساني
قد كنت أطوي هواه عنه مذ كنت في سالف الزمان
فبحت إذ طال بي بلائي ولم تكن لي به يدان

والظاهر أن «فوز» اسم ابتدعه الشاعر، ليخفي هوية محبوبته، وقد تندرت إحدى جاراته فسمت خادمتها فوزا لتبالغ في السخرية منه والإنحاء عليه، ولهذا قال:

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة كانت بذي الأثل من خدني وأنصاري
سمت وليدتها فوزا مغايظة عذرت لو لطمتني ذات إسوار
وما يزال نساء من قرابتها في كل ناحية يهتكن أستاري

وفي هذه الأبيات تصريح بأن أقارب محبوبته يحاولون فضح هواه، وهو هوى لم تفضحه غير الدموع، فقد قال:

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان [1]

(١) لم يستظرف أستاذنا الشيخ سيد المرصفي من الشعر الرقيق غير هذه الأبيات مما اختار القالي في الأمالي

ثم قال:

هبوني أغض إذا ما بدت وأملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع نطقن فبحن بما أضمر

ويعزي قلبه بأنه سيموت مكتوم السر إلا عمن يحب، فيقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصبا بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

وعوذبة هذه المعاني أوضح من أن تحتاج إلى إيضاح، وهي شعر يغني به القلب فتشجى به الروح، ويطرب له الوجدان.

ويطيب لهذا العاشق أن يزيع أنه سلا عن الحب، لينصرف الناس عن إيذاء محبوبته الغالية، وفي هذا المعني يقول:

كذبت على نفسي فحدثت أنني سلوت لكيما ينكروا حين أصدق
وما عن قلى مني ولا عن ملالة ولكنني أبقي عليك وأشفق
عطفت على أسراركم فكسوتها قميصا من الكتمان لا يتخرق

وقد يعتذر عن هجره فيقول:

الله يعلم ما أردت بهجركم إلا مصانعة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدي وتستري أدنى لوصلك من دنو فاضح

وهو بهذا يجعلها من الحرائر المتجملات، ويجعل بعض الهجر فنا من الوصل. ويدافع عن الحب بالصدود فيقول:

سأهجر إلفي وهجرانها إذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محب ولكننا ندافع عن حبنا بالصدود

أو يدافع عنه بالبغض المفتعل فيقول:

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين
تخبرنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين

ويكذب ليدفع الأذى عن الهوى فيقول:

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أحب
ولا بد من كذب في الهوى إذا كان دفع الهوى بالكذب

ويتمنى لو استطاع ستر حبه عن قلبه فيقول:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى فأكرم أسباب الردى سبب الحب
ولو أن خلقا كاتم الحب قلبه لمت ولم يعلم بحبكم قلبي

ويأس من الكتمان فيقول:

إن المحبين قوم بين أعينهم وسم من الحب لا يخفى على أحد

وشهرة العباس بالكتمان ملأت الأندية في زمانه، ودعت إلى الترحم عليه عند الموت، فقد حدثوا أنه مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد، فرفع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمون أن يصلي عليهم، فصفوا بين يديه، ثم سأل

عنهم واحدا واحدا فأمر بتقديم العباس فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سماك لي ناس وقالوا إنها لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحتهم ليكون غيرك ظنهم إني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال: أتحفظهما؟ فقال: نعم! فقال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ فقال: بلى يا سيدي![1]

مكانة العباس:

لصلاة المأمون على العباس معنى من أكرم المعاني، فما يصلي المأمون على ميت بأمر الرشيد إلا إن كانت للميت مكانه في المجتمع، وما يرفع أمر ثلاثة من الأموات إلى الرشيد إلا إن كانوا من مشاهير الرجال، كالذي نرى في المجتمع المصري في هذا العهد، فملك مصر لا يرسل مندوبا للسير في جنازة ميت إلا إن كان الميت من ذوي المكانة في المجتمع.

فكيف كانت مكانة العباس؟

---

(١) في هذه الحادثة خلاف تحدث عنه ابن خلكان في وفيات الاعـ

كان يجالس الرشيد في أوقات الجد، وكان يصحبه في بعض الرحلات الجدية، وكان أهل عصره يتغنون بشعره، وتلك مزايا تفرد بها بين شعراء ذلك الزمان.

وقد سرى هذا الاحترام إلى صدور الخلفاء بعد الرشيد، فقد كان الواثق من المفتونين بشعره إلى أبعد حدود الفتون.

يضاف إلى هذا تعففه عن هدايا الأمراء، وترفعه عن النزعات السوقية، وحرصه على كتمان الحب، ولا يكتم اسم محبوبه الجميل إلى المحب النبيل.

مكانة فوز:

اسم «فوز» قليل الورود على ألسنة الشعراء، فهو غريب بين أسماء النساء. فمن هي فوز؟

أقول من جديد إنه اسم ابتدعه الشاعر لمعشوقته لا يستطيع الجهر باسمها الصحيح، فمن هي فوز التي جرى اسمها في مجلس الرشيد بهذه الأبيات:

إذا أحببت أن تصنع شيئا يعجب الناسا
فصور ههنا فوزا وصور ثم عباسا
فإن لم يدنو حتى ترى رأسيهما راسا
فكذبها بما قاست وكذبه بما قاسى

هي عقيلة من العقائل النبيلات في بغداد، عرفها الشاعر وأحبها، ولم يرى من العقل أن يؤذيها بالافتضاح:

عيون العائدات تراك دوني فيا حسدي لعيني من يراك
أريدك بالسلام فاتقيهم وأعمد بالسلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك والقلب باكي

وأعنف هوى يعانيه عاشق هو الهوى المكتوم في بغداد، فما في الدنيا مدينة توحي الهوى كما توحيه «مدينة السلام»، وذلك اسم من أسماء الأضداد، فهي مدينة حرب في جميع العهود!

«فوز» هي «ليلى» ذلك الزمان، فليس من العجب أن تقيم «ليلى المريضة» في شارع العباس بن الأحنف، لتتسق المعاني بين هذا الجيل وذلك الجيل.

البغدادية الأصيلة توحي المعاني أكثر مما توحي الأهواء، هي سيدة كاملة تأنس بالروح وتنفر من الإسفاف، وهي المثال الصادق لشرف العفاف.

هل عرفنا من هي فوز؟

هي ظلوم التي توجع من ظلمها العباس فقال:

قالت ظلوم سمية الظلم ما لي رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده أنت العليم بموضع السهم

وهي التي أوحت إليه أن يقول:

الحب أملك للفؤاد بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب

وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبدُ إلا والفتى مغلوب

وما فتنته إلا لأنها كانت كما قال:

وقد ملئت ماء الشباب كأنها قضيب من الريحان ريان أخضر

ومن هذا البيت عرفنا من هي فوز، عرفناها، عرفناها، فقد كانت بنت أحد المياسير، والأجسام لم تكن تخصب في غير بيوت المياسير.

ومن عظمتها في بيتها عظم معناه في بيته حين قال:

حتى إذا اقتحم الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

وهي خليقة بأن يشقى بها هذا الشقاء، فلعلها كانت كما وصفها فقال:

ذكرتك بالتفاح لما شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب
تذكرت بالتفاح منك سوالفا وبالراح طعما من مقبلك العذب

نهاية العباس:

أطال العاشق حديثه عن بلائه بالحب... وكيف لا يشقى بالهوى من جعله ديدنه في أعوام تزيد على الأربعين، وفي مدينة توحي الصبابة مثل بغداد؟

والشاعر يحدثنا أن معشوقته تفتح له أبوابا من المنون:

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا
عذبيني بكل شيء سوى الصد فما ذقت كالصدود عذابا

ويحدثنا أن أشعاره كانت تفتح مغاليق القلوب:

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وهنا تظهر فجيعة الشاعر، فأشعاره يتوسل بها العاشقون فينالون، ويتوسل بها الشاعر فيحرم، فحاله حال الشمعة تضيء للناس، وهي تحترق. وهذا حظ من أشأم الحظوظ.

وقد حذر محبوبته من عواقب التجني عليه فقال:

بكت عيني لأنواع من الحزن وأوجاع
أعيش الدهر إن عشت بقلب منك مرتاع
وإن حل بي البعد سينعاني لك الناعي

وعبارة «إن عشت» في البيت الثاني غاية في القوة البيانية ثم ردد هذا المعنى فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي
لقلما أبقى على كل ذا يوشك أن ينعاني الناعي

ويصرخ من جور محبوبته فيقول:

أسأت أن أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق فآتيكم والقلب مملوء من الياس

ثم يدفن هواه ويبكي عليه:

سبحان رب العلا ما كان أغفلني عما رمتني به الأيام والزمن
من لم يذق فرقة الأحباب ثم يرى آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن

ويروض محبوبته على إدراك منزلته فيقول:

أما تحسبيني أرى العاشقين؟ بلى، ثم لست أرى لي نظيرا
لعل الذي بيديه الأمور سيجعل في الكره خيرا كثيرا

ويدعوها إلى تجديد العهد فيقول:

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

ولكنها تتبغدد كما يعبر المصريون وكيف لا تتبغدد وهي بنت بغداد؟

هذه المتاعب أمرضت العاشق، وأنذرته بالموت:

أهابك أن أشكو إليك وليس لي يد بالذي ألقى وأخفي من الوجد
وإني لصادي الجوف والماء حاضر أراه، ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكف أخص الناس كلهم عندي

قتيل الحب لا قتيل الحرب:

حاول العاشق أن يداوي مرضه برحلة إلى الحجاز في موسم الحج، وهو من مواسم العيون والقلوب، ولكن المرض عوقه في الطريق، فقال يخاطب الحجاج:

أزوار بيت الله مروا بيثرب لحاجة متبول الفؤاد كئيب

وقولوا لهم يا أهل يثرب اسعدوا ... على جلب للحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا في حبال شعوب
به سقم أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ... ألا إنها لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتم بي حشاشة ... لها في نواحي الصدر وجس دبيب
فرشوا على وجهي أفق من بليتي ... يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به؟ ... وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم: جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم ... وبيني بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة ... خليف فصيح مطبق وكئيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا ... قتيل كعاب لا قتيل حروب

حكى المسعودي أن جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحج، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقف على المحجة وهو ينادي: أيها الناس، هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ فعدلنا إليه وقلنا له: ما تريد؟ فقال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم. فملنا معه فإذا شخص ملقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يحير جوابا، فجلسنا حوله فأحس بنا فرفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفا، وأنشأ يقول:

يا غريب الدار عن وطنه ... مفردا يبكي على شجنه
كلما جد البكاء به ... دبت الأسقام في بدنه

ثم أغمي عليه طويلا ونحن جلوس حوله إذ أقبل طائر فوقع على أعلى الشجرة وجعل يغرد، ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ الفتى يقول:

ولقد زاد الفتى شجنا طائر يبكي على فنته
شفه ما شفني فبكي كلنا يبكي على سكنه

ثم تنفس تنفسا فاضت نفسه معه، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه. فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عليه فقال: هذا العباس بن الأحنف!

*****

إن هذه الأسطورة اللطيفة تبين مكانة العباس عند رجال الوجدان.

وقد أكرم العراقيون ذكراه فسموا شارعا باسمه هو أجمل شوارع بغداد، وفيه تقيم «ليلى المريضة في العراق» رعاية لمعنى الكتمان.

obeikandl.com